

سبيلاً إلى الكفر، والقنوط من مظاهر الضلال، وإن أضعف الأمم إذا سمعت قوله تعالى: (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة) ... إن أضعف الأمم إذا سمعت هذا التبشير كله، وقرأت ما إليه من قصص تطبيقية واقعية، لابد أن تخرج بعد ذلك أقوى الأمم إيماناً وأرواحاً، ولابد أن ترى في هذا الأمل ما يدفعها إلى اقتحام المصاعب مهما اشتدت، ومقارعة الحوادث مهما عظمت، حتى تظفر بما تصبو إليه من كمال.

طن إلى أن اليأس ليس من أخلاق المسلمين. فقال: "لا تيأسوا فليس اليأس من أخلاق المسلمين". وشخص اليأس مرضاً من أمراض الأمة.

من خلال دراسة تجارب التاريخ وسنن الله في خلقه، تفتن إلى أن: "حقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد"، وإلى أن: "الضعيف لا يطلّ ضعيفاً طوال حياته، والقوي لا تدوم قوته أبد الأبدين: (وَتُرِيدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ). (القصص:5)".

تفتن أيضاً إلى أن الدّور على الفئة المؤمنة لقيادة العالم، فقال: "الدّور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب" لأنّ هذه هي سنّة الله التي وعد بها: (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

أى أنّه لم يضع الوقت بعد، وأثّه: "لا يزال في الوقت مّسع؛ لاستدراك ما فات، وإصلاح ما فسد، وأنّ" الفرص ستسبح للأعمال العظيمة".

رأى أنّه على الرّغم من مظاهر الموت التام والاستحالة المستغرقة "لا تزال عناصر السّلامة قويّة عظيمة في نفوس شعوبكم المؤمنة، على الرّغم من طغيان مظاهر الفساد"، وأنّ المظاهر الدّالة على بداية شفاء الأمة وتحولها من الثّبات إلى الحركة متوافرة، منها كثرة الأصوات الدّاعية للتّهوض، والإحساس العام بالتدهور الحضاريّ.

ورأى أنّ الدّعوة الإسلاميّة صارت حاجة بشريّة، وضرورة حضاريّة، وأنّ العالم في أمسّ الحاجة لهذه الدّعوة، فإنّ: "العالم ينظر دعوتكم دعوة الهداية والفوز والسلام لتخلّصه مما هو فيه من آلام".

رابعاً: أهميّة الأمل في بناء البنا

شغل الأمل كبيرة لدى البنا، حيث جعله أول أساس لقيام أيّ دولة أو نهضة: ففي رسالة "نحو النور" جعل الأمل من أساسات قيام أي دولة، بل جعله أوّل الأساسات، فقال معدداً متطلبات النهضة، تحت عنوان: "الإسلام والأمل": "تحتاج الأمة التّاهضة إلى الأمل الواسع الفسيح، وقد أمّد القرآن أممه بهذا الشّعور بأسلوب يخرج من الأمة الميّتة أمة كلّها حياة وهمة وأمل وعزم، وحسبك أنّه يجعل اليأس سبيلاً إلى الكفر، والقنوط من مظاهر الضلال...".

قدّم الأمل على العمل، وجعله تالياً لتشخيص الدّاء؛ ففي رسالة "دعوتنا"، كتب تحت عنوان فرعي "أمل وشعور" جاء مباشرة بعد رحلته التّشخيصيّة لأدواء مصر والأمم التّشريقيّة، وقبل أن يتحدّث عن وسائله المقترحة ومناهجه لمعالجة هذه الأدواء: "أحبّ أن تعلم يا أخي قبل أن أتحدّث لك عن هذه الوسيلة أننا لسنا يائسين من أنفسنا، وأتينا نأمل خيراً كثيراً، ونعتقد أنّه لا يحول بيننا وبين التّجّاح إلّا هذا اليأس، فإذا قويّ الأمل في نفوسنا فسنصل إلى خير كثير إن شاء الله تعالى؛ لهذا نحن لسنا يائسين، ولا يتطرّق اليأس إلى قلوبنا والحمد لله. وكلّ ما حولنا يبشّر بالأمل، على الرّغم من تشاؤم المتشاؤمين... لهذا لسنا يائسين أبداً... لم ييأس الإخوان المسلمون من أن ينزل نصر الله على هذه الأمم، على الرّغم ممّا يبدو أمامها من عقبات، وعلى ضوء هذا الأمل يعملون عمل المجدّ والله المستعان".

هذا النّص يوضح أهميّة الأمل لديه وإصراره على بثّ هذا الأمل في التّفوس بالتمثيل تارة وبالاستشهاد تارة، وحرصه على ترسيخه في التّفوس؛ لأنّه أساس نجاح الوسائل التي سيذكرها بعد.

ان يرى أنّ الأمل من وسائل النّصر، حيث قال: "وبالإيمان والجهاد والأمل والعمل ننتصر ونصل إن شاء الله".

كان يرى أنّ الأمل سلاح؛ فقد قال متحدّثاً عن وسائل تحقيق المطالب وأخذ الحقوق، وكان منها الحقّ والإيمان والأمل: "والأمل بعد ذلك سلاح ثالث، فنحن لا نبيأس، ولا نتعجّل، ولا نسبق الحوادث، ولا يضعف من همّتنا طول الجهاد والحمد لله ربّ العالمين؛ لأننا نعلم أننا مثابون متى حسنت النّيّة وخلصت الصّوائر وهي خالصة بحمد الله، فكلّ يوم يمضي بنا فيه ثواب جديد، والنّصر من وراء ذلك لا يتخلّف (كتبّ الله لأعْلِيَنَّا أَمَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ). (المجادلة:21)، (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَأَنزَلَ الْغُلُوبَ). (يوسف:110)، فبم اليأس و فيم القنوط؟! لن يجد اليأس إلى قلوبنا سبيلاً بإذن الله (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ). (يوسف:87). وسنعمل على ضوء هذه المشاعر، وسنعمل بالحقّ يدفعنا الإيمان، ويحدونا الأمل". فهذا النّص بدأه بكلمة الأمل؛ وأنها السّلاح الثّالث، وحثمه أيضاً بكلمة الأمل

يعتبر أنّ الأمل الواحد من عوامل الوحدة بين شعب الإخوان المسلمين، حيث قال: "واذكروا جيّداً أيّها الإخوان.. أنّ كلّ شعبة من شعبيكم وحدة متّصلة الرّوح مؤتلفة القلوب، جمعتها الغاية السّامية على هدف واحد، وألم واحد، وأمل واحد، وجهاد واحد".

ويعتبره أيضاً من وسائل الوحدة الجامعة بين المسلمين فقال في "رسالة قصّيتنا" عن إسهامات الجماعة في تحقيق الوحدة بين المسلمين: "وشاركت باكستان في شعورها وأملها وألمها حتى ظهرت إلى الوجود". فالذي يجمع بين مصر في إفريقية، وباكستان في أقصى آسيا المشاركة في الأمل، والألم، والشّعور.

ويرى أنّ الأمل من أهمّ خصائص دعوة الإخوان، حيث ذكر في "رسالة اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد" أهمّ ما تختلف فيه حركة الإخوان عن التّاس، فقال: "فلقد أراد الله... وأنّ تأملوا حين تغشّت التّاس سحابة اليأس، وأن تتجمّعوا وقد تشققت العصا، واختلف أمر الهيئات والأحزاب، أن يلتفّ التّاس حولكم، وتنتهي التّفة إليكم، ويحفّ الأمل بكم حين فقد التّاس أملهم وثقتهم، وكاد كلّ واحد يشكّ حتى في نفسه".

وانطلاقاً من هذه الأهميّة للأمل مارسه عمليّاً فأمل في بعث مجد الإسلام، حيث قال في "رسالة المؤتمر السادس": "ولنا بعد ذلك آمال جسام في إحياء مجد الإسلام وعظمة الإسلام، يراها التّاس بعيدة ونراها قريبة: (قَاصِرٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) (الروم:60)".

وجزم بعدم اليأس أبداً، حيث قال في "رسالة التعلّم" بعد أن ذكر المراحل السّبعة: "يراه التّاس خيالاً ويراه الأح المسلم حقيقة، ولن ييأس أبداً، ولنا في الله أعظم الأمل (والله عَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ). (يوسف:21).

خامساً: تحولات الأمل في بنائه

ما زال البنا بيتّ الأمل في استعادة مجد الإسلام، حتى تحوّل هو؛ داعية الأمل، إلى أمل في عين تلامذته وفي عين المنصفين، ثم لما كوّن جماعته واشتدّ عودها تحوّلت في عينه، وفي عين الغيورين، وفي عين العاملين فيها إلى أمل.

الدّاعية الأمل

تحوّل البنا إلى أمل في عيون تلامذته، وفي عيون المنصفين من مثقفي الغرب وإعلاميه؛ أمّا تلامذته فقد قال عبد البديع صقر تحت عنوان سعة أمله: "وكان واسع الأمل - أو قل - واسع الخيال، وهي صفة لا بدّ منها لكلّ مصلح" - وأحياناً يستفتح الحديث بقوله: "دعونا نتخيّل وجود شعب مؤمن فاهم، يحقّق كذا وكذا". ومن كلماته الساترة: "حقائق اليوم أحلام الأمل، وأحلام اليوم حقائق الغد".

وعلى المستوى الشّخصي أرى هذا الأمل كلّما نظرت إلى صورة من صورته؛ فأول ما تركّز عليه عينا في صورته هو عينا، فأجد فيها شعاعاً حيّاً بصّاً، يخرج من بريق عينيه، يعطيك أملاً غريباً، وطمانينة عجيبة.

ولعلّ هذا البريق هو نفسه الذي لمحّه الصّحفي (روبرت جاكسون) مراسل صحيفة (نيويورك بوست) الأمريكيّة، فجعله يعنون لحواره مع البنا في 13 فبراير سنة 1946م بالعنوان التّالي: "حسن البنا ... أمل الشرق في صراعه مع المستعمر".

الدّعوة الأمل

ما زال البنا يتحدّث عن الأمل وبينه الجماعة التي ستحقّق الأمل، حتى تحوّل الإخوان أنفسهم في نظره وفي نظر العاملين في الدّعوة وفي نظر الغيورين إلى أمل؛ ظهر هذا من صديق غيور طلب منه أن يتعدّد بالجماعة عن السياسة، خوفاً عليها؛ لأنّها أصبحت أملاً للغيورين، فقال له: "أليس الأرواح للإخوان... تدع التّاحية القوميّة أو الوطنيّة أو السّياسيّة بعبارة أخرى لسواها من الهيئات؛ حتى لا يتعرّض للعواصف القاسية هذا البناء العالي الذي أصبح للغيورين أملاً، وفي تاريخ هذه النهضة عملاً؟".

وأوضح في "رسالة اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد" أنّ التّاس قد التفتّ حول الإخوان، وأنّ نقتهم وأملهم انتهى إليهم، فقال: "فلقد أراد الله... أن يلتفتّ التّاس حولكم وتنتهي التّفّة إليكم وبحقّ الأمل بكم حين فقد التّاس أملهم وثقتهم، وكاد كلّ واحد يشكّ حتى في نفسه".

وحثّ على العناية بتحقيق أهداف الأسرة على وجهها؛ حتى يتحقّق النّظام وحتى لا تموت الدّعوة؛ ففي موتها خسارة كبيرة؛ لأنّها أمل الإسلام والمسلمين، فقال في رسالة نظام الأسر حاثّاً على العناية بتحقيق أركان الأسرة: "فإذا أدبتم هذه الواجبات الفرديّة والاجتماعيّة والماليّة، فإنّ هذا النّظام سيتحقّق ولا شكّ، وإذا فترتم فيها فستبطل حتى يموت، وفي موته أكبر خسارة لهذه الدّعوة، وهي اليوم أمل الإسلام والمسلمين".

وقد أصبحت الدّعوة أيضاً أمل الآمال ليس للمسلمين، وليس للغيورين، ولكن أيضاً للعاملين فيها، ولأصحابها، فقال في رسالة المؤتمر الخامس: "تم لا تلبث أن تستولي (أي الدّعوة) على هذه القلوب، وتستغرق شعورها وتفكيرها، وتصيح للزّجل أمل الآمال، وغاية الغايات، فيدعو ويضحّي ويبدل".

وقال في "اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد" متحدّثاً عن موقف الإخوان من قرارات السّنّون الاجتماعيّة وقتها، التي طلبت من الإخوان تكييف وضعهم مع شروطها: "...والأضع أنفسنا ودعوتنا التي وقفنا لها الدّم والمال والحياة والأبناء وهي عندنا أمل الآمال في موضع يغلّ يدها وبحول بينها وبين العمل لتحقيق أغراضها والوصول إلى أهدافها".

ووضح ترسّخ الأمل في نفس البنا حينما حُلّت جماعته، وصدورت أموالها، وسجن رجالها، وشردت أسرها، وبقي وحيداً يدافع عن قضيتها، يعتصره الأمل، لا لشخصه، ولا لأنّه هو الذي بناها، وحقّ له ذلك، ولكن لأنّه يراها: "فلذة كبد هذا الوطن، وخيرة شبابه ورجاله، والجزء الشّاعر الواعي في هذا الجسم الخامل المريض".

وعلى الرّغم من هذه المرارة يقول: "وفوجئت الأثمة بهذا القرار الخطير - فرار حلّ الإخوان - الذي خسرت به البلد - إلى حين - هيئة من أنشط الهيئات العاملة لخبرها".

انظر إلى الجملة الاعتراضيّة "إلى حين"، التي تحمل أملاً يصمّر عليه، ومات رحمه الله وبنائه مسجون مشرّد مصادر، ولم ير هذا "الحين" وقد انتهى، ولم ير هيئته وقد ملأت فم الرّمان تبسّماً وثناً.

سادساً: روافد الأمل عند البنا

سرح البنا بعض روافد فكرة الأمل لديه، وبعضها يُستشفّ من بنائه استشفافاً:

(1) فأول هذه الرّوافد التي استقى منها الأمل هو القرآن الكريم، فقد كان كثيرًا ما يستشهد في مواطن حديثه عن الأمل بالآيات التالية: (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). (الأعراف:128). (أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصّٰلِحُونَ). (الأنبياء:105). (وَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْزُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ). (الحج:40).

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ آتَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ). (المجادلة:21). (وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ). (يوسف:21). (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا). (الأنفال:12). (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ). (الروم:47). (وَتُرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا فِي الْأَرْضِ). (الفصص:5). وبغيرها من الآيات.

(2) ثاني هذه الرّوافد هو الحديث الشّريف، وقد جاء تصريحه بهذا الرّافد عرّضاً، حيث قال: "لهذا لسنا يائسين أبداً، وآيات الله تبارك وتعالى وأحاديث رسوله -صلى الله عليه وسلّم- وسنته تعالى في تربية الأمم وإنهاض الشعوب بعد أن تشرف على الفناء، وما قصّه علينا في كتابه، كلّ ذلك ينادينا بالأمل الواسع، ويرشدنا إلى طريق النّهوض، ولقد علم المسلمون - لو يتعلمون - ولكنّي لم أره ذكر حديثاً واحداً في معرض حديثه عن الأمل - في حدود طبيعة الرّسائل التي اعتمدت عليها؛ ربّما لأنّ كثرة آيات القرآن التي تتحدّث عن الأمل كافية في نظره.

(3) سنن الله في تربية الأمم وإنهاض الشعوب بعد أن تشرف على الفناء، كما قال في التّصّ السابق.

(4) تجارب التّاريخ والسّير فقد قال: "إنّ أضعف الأمم إذا سمعت هذا التّبشير كلّه، وقرأت ما إليه من قصص تطبيقيّة وإفريقيّة، لا بدّ أن تخرج بعد ذلك أقوى الأمم إيماناً وأرواحاً...".

(5). وهناك مصدر لم يصح به، ولكنني سألت نفسي: إن آيات الأمل التي يعرضها البنا كانت معروفة لدى من له أدنى صلة بالقرآن وهم كثير، ولم تشكّل هاجسًا قويًا داخلهم كما فعلت مع البنا، ولم يربّنها أحدهم في درجات الأهمية التي ربّنها بها البنا، فما الذي فتح له هذا الأفق من الأمل، وبّين له درجته في بناء الأمم؟

ووجدت الإجابة في قوله: "فقامت التازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا، وأخذ كلُّ من موسوليني وهتلر بيد شعبه إلى الوحدة والنظام والتهوض والقوة والمجد، وسرعان ما خطا هذا النظام بهاتين الأمتين في مدارج الصّلاح في الدّاخل والقوّة والهيبة في الخارج، وبعث في النفوس الآمال الخالدة، وأحيا الهمم والعزائم الرّائدة، وجمع كلمة المختلفين المتفرّقين على نظام وإمام، وأصبح الفوهرر أو الدوتشي إذا تكلم أحدهما أو خطب تفرّعت الأفلاك والتفت الدّهر".

فربّما كان الرّجل - وهو البارِع في أخذ الصّالح النّافع من كلّ شيء - قد تفتّحت لديه أهمّية الأمل من استخدام هذه الأمم له في بناء نهضتها، فعاد إلى ما يحمله من القرآن ليرى هل هذا من الإسلام، فوجده أكمل وأروع ممّا عندهم، ومن هنا جاءت مرتبته عنده في الأهمية، وفي بناء التّهضات، وهذا احتمال لا أدعي تأكيده.

سابقًا: ملاحظة على أمل البنا

لاحظتُ أنّ البنا - رحمه الله - خلط في الاصطلاح بين الأمل والثّقة، واستخدم كلمة أمل فيما هو ثقة لا أمل، وهذا ما دفعني إلى أن أفرّق في بداية حديثي بين الأمل والثّقة؛ حيث قال في رسالة "دعوتنا في طور جديد: "وبهذه المشاعر الثلاثة: الإيمان بعظمة الرّسالة، والاعتزاز باعتناقها، والأمل في تأييد الله إيّاها، أحياها الرّاعي الأوّل - صلّى الله عليه وسلّم - في قلوب المؤمنين من صحابته بإذن الله".

وقال بعدها بقليل: "أيّها النّاس، قبل أن نتحدّث إليكم في هذه الدّعوة عن الصّلاة والصّوم، وعن القضاء والحكم، وعن العادات والعبادات، وعن النّظم وعن المعاملات، نتحدّث إليكم عن القلب الحيّ، والرّوح الحيّ، والثّفس الشّاعرة، والوجدان اليقظ، والإيمان العميق، بهذه الأركان الثلاثة: الإيمان بعظمة الرّسالة، والاعتزاز باعتناقها، والأمل في تأييد الله إيّاها، فهل أنتم مؤمنون؟". فتأييد الله ليس أملاً كما قال - رحمه الله - بل ثقة؛ ولي ثلاثة أدلّة على هذا:

قوله قبل هذين الموضعين في الصّفحة نفسها: "وقذف في قلوبهم أنّهم ما داموا كذلك مؤمنين بهذا الحقّ، معتزّين بانتسابهم إليه، فإنّ الله معهم يعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيّدهم ويمدّهم إذا تخلّى عنهم النّاس، ويدفع عنهم النّاس، وإذا لم ينهض معهم جند الأرض تنزّل عليهم المدد من جند السّماء، وأخذوا يقرؤون هذه المعاني السّامية واضحة في كتاب الله... قرؤوا هذا وفقهوه جيّدًا، فأمنوا به، واعتقدوه وصدروا عنه".

فهذه عقيدة وثقة يقينيّة وليست مجرّد أمل؛ فالأمل من الممكن أن يخيب، أمّا الثّقة فيما وعد الله به فهو يقين محقق لا محالة، ولا يمكن أن يتخلّف بحال من الأحوال.

أثّر في مواضع كثيرة عن تأييد الله بالثّقة، وليس بالأمل؛ فقال في "رسالة دعوتنا": متحدّثًا عن العاملين المؤمنين: "واثقون بتأييد الله إيّاهم ما داموا له يعملون، وعلى هدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسيرون". وقال في "رسالة الإخوان تحت راية القرآن": "ونحن بعد هذا كلّه واثقون بنصر الله مطمئنون إلى تأييده".

تُ اللغة تستعمل الأمل فيما يصعب حدوثه، كما أبنتُ في أوّل حديثي، وأمّا الثّقة فُستخدم في اليقينيّ، ووعد الله يقينيّ.